مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

جيل دولوز قارئاً نيتشه وكيركيغارد

الدكتورة منيرة محمد *

سحر محمد **

(تاريخ الإيداع 22 / 10 / 2014. قبل للنشر في 23 / 12 / 2014)

□ ملخّص □

نحاول في هذه الدراسة المختصرة أن نلامس بعضاً من تقنيات القراءة عند دولوز لفيلسوفين حديثين كبيرين هما نيتشه وكيركيغارد. وسنعمل على تبيّن مفاصل هذه القراءة وأغراضها وتوضّعها داخل المتن الفلسفي العام لجيل دولوز من خلال نصيّن هما "نيتشه والفلسفة[1] (1963)، و"الاختلاف والتكرار[2] (1968)، وذلك عبر تتبّعٍ لمستوى الاختلاف والتشابه بين مفاهيم العود الأبدي عند نيتشه والتكرار عند كيركيغارد، ومآل التوظيف المناسب لهما داخل فلسفة الاختلاف عند دولوز. وهذا التوظيف لن يكون بأيّة حال توظيفاً توفيقياً، يأخذ ما يلائم ويهمل الباقي، أو جدلياً ينفي ويدحض ويتجاوز، أو اشتراعياً، أي باحثاً عن مشروعية لمفاهيمه الخاصة في حقل التاريخ الفلسفي، بل هو استعادة خلاّقة لمفاهيم، قد تبدو هامشية أو ثانوية أو مهملة أو ابتلعها النسيان، وإزاحتها من مواقعها التقليدية لتدفع بها إلى رحاب جديدة لم تكن تعرفها من قبل وتوسّع من أفقها ودلالاتها. وهي استعادة أسميها استعادة تبيئية وتحيينية وتحديثية للمفاهيم الفلسفية وهو فعلٌ يشبه ما نقوم به في العالم الافتراضي، وهذه هي نسقية دولوز المنهجية بامتياز: الاستعادة والخلخلة والتكرار لمفاهيم متروكة ثم بعثها بها من جديد في نسق مغاير يضفي عليها الحياة والتجدّد.

الكلمات المفتاحية: الاختلاف، التشابه، التكرار، الاتساق.

*أستاذة مساعدة، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سورية

**طالبة دكتوراه، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سورية.

1 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.

2 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ترجمة وفاء شعبان ومراجعة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

Gilles Deleuze: The Reader of Nietzsche and Kierkegaard

Dr. Mounira Mohammad*
Sahar Mohammad**

(Received 22 / 10 / 2014. Accepted 23 / 12 / 2014)

□ ABSTRACT □

We try in this study to approach some of Gilles Deleuze's technique of reading the history of philosophy, by following him in his creative recovery of two Modern great philosopher: Nietzsche and Kierkegaard. We will go through to make clear the articulation of this technique by reading in two major works of Deleuze " Nietzsche and Philosophy (1963)" , and" difference and repetition (1968)" , by tracking the level of differences and similarities between the concepts of the Eternal Recurrence in Nietzsche's and repetition in Kierkegaard's Philosophies, and the fact of the Employment appropriate for them within the philosophy of difference of Deleuze. And by this we will have a deep look to the global Philosophy of Gilles Deleuze and to examine his master concept which is the concept of Difference, and to see the way he manipulates and displace old and leftover concepts like repetition and eternal recurrence and regain them back in a new way and by giving them a new significance and how he reanimates them and make them pertinent and coherent with his proper Philosophy.

Key words: Difference, Similarities, Repetition, Coherent.

***Associate professor, department of philosophy, Faculty of Art and Humanities, Damascus University, Syria.**
****Postgraduate Student, department of philosophy, Faculty of Art and Humanities, Damascus University, Syria.**

مقدمة:

ينتهي "فكر الحداثة الفلسفية" بحسب جيل دولوز إلى« إخفاق التمثّل، كما من ضياع الهويات»[1]. فمذهب الهويّة العنيد الذي حكم الفكر الفلسفي لحقبة طويلة من الزمان إنّما هو وليد فكر التمثّل القائم على صور منعكسة للواقع، وليس الواقع كما هو في حقيقة أمره كما تتبيّنه الخبرة المعاشة أو العلم التجريبي، وجلّ ما سعى هذا الفكر إلى تحقيقه هو الظفر بتطابق بين التمثّل والواقع.ففلسفة دولوز تنحو في مساراتها المتعدّدة والمتشعّبة إلى قلب الفكر الفلسفي التقليدي القائم على محاكاة النماذج والصور التي ينتجها الذهن الذي يكتفي بتأليفها في أفكار موحّدة، ثابتة ومطمئنة، إلى فكر يجعلها في حراك وصيرورة وتغيّر. وذلك باعتبار أنّ الواقع يفرّ من التعيينات التي تشدّه إلى التثبّت في هويات لها خصائص دائمة أو شبه دائمة هي خصائص فكر بعينه هو فكر الهوية الذي مآتاه لا يغدو أن يكون أكثر من تمثّلٍ لأنعكاسات لانهائية هي أدوار لإنعكاسات أخرى. وهذه الهويات لها بحسب دولوز وجود مؤقت، وهمي ومصطنع[2] يطمئنّ له الفكر، ولكن سرعان ما يكتشف أنّ مكوّنات هذه الهويات« قد نتجت بوصفها أثراً بصرياً عن لعبة أعمق هي لعبة الاختلاف والتكرار»[3]. ففي قراءته لتاريخ الفلسفة استعاد دولوز مفاهيم أساسية وأخرى هامشية لفلاسفة محدّدين، ومارس عليها ضرباً من الإزاحة من مواقعها الأصلية وخلخلة سياقاتها التي تثبتت فيها وتكرست من خلالها وأصبحت جامدة لا حياة فيها ولا حراك، ومن ثمّأعاد– تملّكها ولكن تحت بناء نظري جديد يقوم على بثّ الحياة والاختلاف فيها وإخراجها من الجمود والتكلّس والإهتراء. وهذا أمرٌ لا يُنال بإبقاء أسُسها الراسخة دون هدم أو خلخلة، دون إزاحة جذرية للمبادئ التي تؤلّفها وتشدّ كيانها. فكان"مبدأ الاختلاف"، أو "فكر الاختلاف"، أو "فلسفة الاختلاف"[4]، هو اللحظة الجديدة[5] التي يقحمها دولوز في الفكر الفلسفي المعاصر. وهي لحظة انعراج هامة في هذا الفكر أصبحت معها جميع المفاهيم واقعة تحت وطأة الاختلاف، أي أصبحت خاضعة للصيرورة والزمان. سنحاول في هذه الدراسة تتبع بعض مسارات هذه القراءة والاستعادة لمفهومين فلسفيين هما مفهوما العود الأبدي عند نيتشه والتكرار عند كيركيغارد، والإزاحة التي يتعرضان لها داخل نسق قراءة مختلف يعيد تملكهما بطريقة جديدة، فيغدو العود الأبدي لذات النفس عند نيتشه عوداً أبدياً للمختلف، ويمسي تكرار ما هوهو عند كيركيغارد تكراراً للإختلاف.

أهمية البحث وأهدافه:

تحتلّ فلسفة جيل دولوز مكانة خاصة ومتميزة في الفكر الفلسفي المعاصر، بل أنّه قد لا يكون من المبالغ فيه أن نقول أنّ الفلسفة مع دولوز قد أخذت منعرجاً جديداً وسم الفكر الراهن بميسمه هو منعرج "فكر الاختلاف" أو "فلسفة الاختلاف"، ممّا حدا بالفيلسوف ميشال فوكو أن يقول عنه " قد لا يكون غريباً القول بأن هذا القرن هو قرن دولوزي بامتياز". فقد أضحت الفلسفة مع دولوز فكراً مفتوحاً على جميع العلوم والفنون والآداب وتجاوزاً للأقاويل الفلسفية

1 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ترجمة وفاء شعبان ومراجعة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009. ص. 38.

2 راجع نفس المرجع، ن. ص.

3 نفس المرجع، ن. ص.

4 نفس المرجع، ص. 396.

5 يرى دولوز أنّ ثمة علامات ثلاث في الفكر المعاصر تؤدي إلى فكر الإختلاف وهي: « – 1 توجّه هايدغر المتدرج نحو فلسفةٍ للإختلاف الأنطولوجي – 2 ممارسة البنيوية المؤسسة على توزيع السمات التفاضلية في فضاء تعايش – 3 فن الرواية المعاصرة الذي يدور حول الإختلاف والتكرار ...» جيل دولوز: الإختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 37–38.

التقليدية وهدماً للأنماط الخطابية والسردية الجاهزة، وسبراً غويراً عمّا خفي أو تمّ نسيانه أو سُكت عنه. ففلسفة الاختلاف هي بحث عن الخيوط السرية التي تشدّ الفكر دون وعي منه أو دراية، إنها فلسفة البحث في الثنايا ونقاط الهروب والانفلات والترحال. فالفلسفة في تعريف دولوز هي "إبداع المفاهيم"..

منهجية البحث:

من العسير على الباحث تعيين منهج البحث بطريقة نهائية وصارمة يلتزم بها طيلة البحث. فقد يلزمه البحث بالتنقل بين مناهج عدّة بحسب ما يقتضيه الموضوع وبحسب ما يقتضيه مطلب البحث نفسه، فقد يلتقي الاثنان وقد يفترقا. ولكن المنهج الملائم قد يتبيّن لصاحبه أثناء سير البحث وقد لا يتبيّن له إلا مع نهاية البحث. لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نتبع منهجا تحليلياً مقارناً لتبيين استخدام الفيلسوف لمفاهيم مستمَدّة من فلاسفة آخرين ومسالك التوظيف الخاصة التي انتهجها في قراءته لها وشكل الإزاحة التي وسم بها هذه المفاهيم، وحاولنا استخراج الدلالات الجديدة التي باتت عليها في سياق فلسفي مختلف.

العود الأبدي للهوهو عند نيتشه

« الكلّ يذهب والكلّ يرجع وعجلة الكون تدور إلى الأبد. كلّ شيء يموت وكل شيء يعود فتتوّر أزهاره ودوائر الوجود لا انتهاء لها »[1]

يرى كثير من الشارحين والمتأوّلين[2] لفلسفة نيتشه* أنّ مفهوم "العود الأبدي" لديه لم يتنزّل في نسق محدَّد أو ينتظم في بنية نظرية متكاملة، وإنّما كان مفهوماً انبثاقياً، طارئاً، وذا طبيعة تنبؤية، حاملاً لقوّة الإلهام الشعري الصاعق والمدهش، وقريب من دلالات الأسطورة منه إلى المفهوم الفلسفي المؤسَّس، ظهر مع كتاب " **هكذا تحدّث زرادشت**" وتكوّن في رحابه السردية، أي في حقبة اكتمال فلسفة نيتشة ونهايتها وإن كان له أصلٌ بعيدٌ وغامضٌ في "**العلم**

---

1 نيتشه، فريدريش: هكذا تحدث زرادشت، ترجمة فيلكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938م، ص186

2 أنظر على سبيل المثال لا الحصر: عبد الرزاق بلعقروز: نيتشة ومهمة الفلسفة، منشورات الإختلاف، الجزائر 2005، الفصل الثالث. أوديف، ستيبان: على دروب نيتشه، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، 1983 الفصل الأخير. بيار هيبر سومبرين: زرادشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 2002، ص. 113 وما بعدها. Colli, Eduardo : *Aprés Nietzsche*, Traduit de l'italien par Pascal Gabellone, Paris Éditions de l'éclat, 2000. J.Wahl, « le problème du temps chez Nietzsche », Revue de Métaphysique et de Morale; Octobre/Décembre, 1961/4, P. 436.George Morel, Nietzsche, introduction à une première lecture, Paris, Aubier, 1985, PP.190.Michel Haar, Nietzsche et la métaphysique, Paris, Gallimard, P. 55.

***نيتشه، فريدريش فيلهلم (1846-1900): يُعدّ نيتشه أكثر الفلاسفة تأثيراً في الفكر العالمي المعاصر، ويمتدّ تأثيره ليشمل الفلاسفة والفنانين والشعراء والأدباء ليس في ألمانيا وحدها بل يتعداها إلى الإنسانية جمعاء. وكانت فلسفته وطريقته في الكتابة موضع نقاش لا يزال قائماً إلى اليوم من خلال أعمال مارتن هيدغر وكارل ياسبرس وكارل لوفيث وجيل دولوز وجاك دريدا وميشال فوكو وغيرهم كثير. تطرّق نيتشه في فلسفته إلى جميع المشكلات الفلسفية والأخلاقية الكبرى التي تعيق الوجود الإنساني وتحدّ من حريته وتقزّم نمط وجوده وتحوّله إلى عبدٍ أو آلة، مثل الدين وبالخصوص المسيحية التي تكرّس برأيه أخلاق الضعفاء والعبيد، والعدمية، ومنظومة القيم السائدة في الحياة والفكر والفن...راجع بهذا الصدد: Encyclopedia of Philosophy, Second Edition, Donald M. Borchert, Editor in Chief, Volume 9, Farmington Hills, Mi, USA, 2006, pp. 607-615.**

المرح"[1]. ولكنّه بقي خارج الأنساق الفلسفية الأكادمية يتناقله المبدعون والفلاسفة المناوئون ولم ينبر أحدٌ "لإعادة تملّكه" لحسابه الخاص، حتّى هيدغر** نفسه في مؤلفيه الظخمين عن نيتشه[2] اعتبره مفهوماً خاصاً بإرادة القوّة وربطه بمفاهيم أخرى مثل "الإنسان الأعلى" و"التجاوز القيمي" وصنّفه كتعبيرٍ ختامي في فكر نيتشه، أي بوصفه التعبير الأخير عن نهاية حقبة هيمنة الميتافيزيقا. فقد كان هيدغر منكباً كما هو معروف على تبيّن زمانية "الدزاين"*** كما وردت في عمله الرئيس "**الكينونة والزمان**" أكثر من اهتمامه بفكرة العود الأبدي في حدّ ذاتها وأن صرّح بطريقة مفاجئة في الجزء الأوّل من كتابه **نيتشه** « إنّ أبدية العودة بوصفها ليست الآنالمعلّق، وليس كذلك الآن المتعاقب إلى ما لانهاية، ولكن الآن بوصفه الممتّد في ذاته: وهذا إن لم يكن شيئاً فإنّه الماهية الخفية للزمان»[3]. وهذا يعني أنّ هيدغر قد رأى في هذا المفهوم "الأسطوري" أصلاً للزمان، معتبراً أنّ نيتشه قد تفكّر أشكالية الزمان على نحوٍ فريدٍ في تاريخ الفكر الغربي[4]. وفي كتابه القيّم عن نيتشه يؤكّد أوغين فينك** على أنّ مفهوم العود الأبدي قد بقي عند نيتشه حبيساً للتصوّرات التقليدية وملتبساً في ذاته إذ« يبدو أنّ مفهوم العود الأبدي للهوهو، أكثر مفاهيم نيتشه عمقاً، قد بقى مع ذلك مفهوماً

---

1 يقول نيتشه في العلم المرح: « ماذا عساك تقول لو أنّ شيطاناً تسلّل يوماً أو ليلة حتّى داخل وحدتك الأكثر انزواءً وقال لك :«هاته الحياة مثلما تحياها الآن، ومثلما حييتها، سيلزمك أن تحياها مرّة أخرى ومرات لا حصر لها، ولن يكون فيها شيء جديد، سوى أنّ كلّ ألم وكلّ متعة، كلّ فكرة وكل تأوه وكلّ ما هو متناه في الصغر والكبر في حياتك لبدّ أن يعود إليك...» أنظر نيتشه: العلم المرح، ترجمة وتعليق حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، تونس، 1993، فقرة 341، ص. 201.

**** هيدغر، مارتن (1889-1976): واحد من أعظم الفلاسفة الألمان عبر العصور. يُعدّ هيدغر مفكّر الوجود الأكبر. تأثّر بفبنومينولوجيا هوسرل واستخدم منهجها. ولكنّه طبّقه على مشكلة الوجود مشيراً إلى الفارق الأساسي الذي غيّبته الفلسفة منذ أقدم العصور ألا وهو الاختلاف الأنطولوجي بين الكينونة والكائن. وأنّ الفلسفة أهتمت بمسألة الكائن و"تسيت" مسألة الكينونة. وقد انصبّ معظم مجهود هيدغر على "هدم" تراث الميتافيزيقا الغربية من أفلاطون إلى نيتشه. ترك هيدغر أثاراً فلسفية عظيمة تناولت مسائل كبرى مثل "التقنية" "، الفن"، "الشعر"، "الحقيقة"، الإنسان"، إلخ...راجع بهذا الخصوص : معجم الفلاسفة ، إعداد جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2006، ص. 694-696.**

2 Heidegger, Martin :*Nietzsche* , 2 t, tr. fr. de P. Klossowski, Paris, Gallimard, 1971

بالرغم من كثرة الإحالات إلى هذا العمل في الدراسات العربية الخاصة بهيدغر إلاّ أنّ مؤلفه هذا لا يزال غير مترجم بعد على حدّ علمي.

***** الدزاين: كلمة ألمانية مركبّة من دا da ("هنا أو هناك") وزاينsein ("أن تكون") ومن ثم فإنّها تعني حرفياً "أن تكون هناك"، وفي حالة المصدر الإسمي "الموجود هناك"[..] وتعني عند كانط وهيغل "الوجود المحدّد" وخصوصاً في الزمان والمكان . ويستخدم هيدغر هذا المصطلح للإشارة إلى "الوجود الذي يكونه كلّ واحد منّا نفسه"..إلخ... راجع بهذا الخصوص : دليل أوكسفورد للفلسفة، المجلّد الرابع، تحرير تد هوندريتش، ترجمة نجيب= =الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس ليبيا، 2002، ص. 342. ومارتن هيدغر: الكينونة والزمان،ترجمة فتحي المسكيني،دار الكتاب الجديد، بنغازي،2012م، ص776**

3 Heidegger, Martin :*Nietzsche* , t1, tr. fr. de P. Klossowski, Paris, Gallimard, 1971, p. 26.

4 نفس المرجع. ن. ص.

**** فينك، أوغين (1905-1975): فيلسوف ألماني يعدّ من أهمّ وجوه الفينومينولوجيا مابعد هوسرل. امتزجت أعماله بكلٍّ من هوسرل وهيدغر، وقام بإعادة ترتيب مخطوطات هوسرل وتنظيمها في أرشيف متناسق في جامعة فريبورغ. لكنّه طوّر فلسفة خاصة به سمّاها "الأنثروبولوجيا الكوسمولوجية". فالأنسان عند فينك ليس ذاتاً وليس "دازين" كما ذهب هيدغر ولكنّه كائن محدّدٌ بالعالم يوجد في فضاء مفتوح للعب بين السماء والأرض، بين العالم والأشياء. فالإنسان محصور بحسب فينك بين "الظواهر الأساسية" للهيمنة والعمل والحبّ والموت. راجع بهذا الصدد: Encyclopedia of Philosophy, Second Edition, Donald M. Borchert, Editor in Chief, Volume 3, Farmington Hills, Mi, USA, 2006, pp. 637-638.**

ملتبساً. ويعوزه التشكّل المفهومي»[1]، ويضيف في مكان آخر أنّ فكرة العود الأبدي ترتبط بصيرورة الكون في كلّيته، وإنّ نيتشه كان يتصوّر الكون في كليّته بوصفه فكرة العودة الأبدية للهوهو، ومع ذلك فهي « فكرة ضمنية أكثر ممّا هي فكرة جلية. إذ يبدو أنّ نيتشه كان يخاف من مفصلتها. وفي الجوهر فإنّ تفكيره يتحدّى الكلمة نفسها. إنّه ضرب من الفهم السرّي»[2].

ولكنّ جيل دولوز وحده من سيستعيد هذا المفهوم ويؤصلّه داخل منظوته الفكرية ويجعل منه مفهوماً "قوياً"، أي مفهوماً شارحاً ومحرّكاً لأنساق أخرى ومعدّلاً وفاعلاً في مفاهيم أخرى مثل "الزمان"، "الصيرورة"، "الاختلاف"، "التكرار" إلخ. سنحاول في ما يلي تتبّع هذا المفهوم عند جيل دولوز لنتبيّن أصله وفصله ونظامه من جهتين: أنطولوجية وإيتيقية. وسينقاد هذا البحث بسؤالين أساسيين: أولاً، على أيّ تصوّر انطولوجي للعالم ينبني مفهوم العود الأبدي؟ أي على أيّ حدس للواقع يتأسّس هذا المفهوم؟ وثانياً، ماهي الغاية من إستعادة هذا المفهوم عند دولوز وتأصيله؟ أي ما هي القيمة الأخلاقية التي يحملها هذا المفهوم؟

وفي مقاربة لهذين السؤالين نطرح للتحقيق الفرضية التالية: إنّ العود الأبدي هو عرض نسقي لحدس أنطولوجي، يرى أنّ الكينونة هي الحياة بوصفها تكراراً للاختلاف «ليس العالم حقيقياً ولا واقعياً، بل هو حيّ»[3]. فالحياة هي المحرّك الأوّل للفعل وللفكر بآن عند دولوز، ومفهومها يتعدّى المستوى العضوي، فهي التعيّن الأصلي لكلّية الواقع الموضوعي. وهي تمتلك في ذاتها مبدأها الخاص في الاختلاف والتكرار والتميّز والخلق وإعادة الخلق وبناء الجديد على الدوام. إنّها تكرار الاختلاف وحركة فرز وتمييز وتفريق، وهي الصيرورة والتجاوز والتعدّد والكثرة والفوضى. ولكنّ الاختلاف عند دولوز هو "اختلاف في ذاته"«الكلّ اختلاف" [...] "الاختلاف بلا مفهوم" [...] "الاختلاف مابه المعطى يُعطى"»[4] فليس الاختلاف عند دلوز إختلافاً بين شيئين أو تصورين أو معنيين، ولكنّه الاختلاف نفسه عينه في صورته المحظة، أي أنّه اختلافٌ في صلب هويّته نفسها. وعلى هذا النحو يكون الاختلاف نشاطاً ديناميكياً ومتجدِّداً من الداخل على الدوام بحسب مبدئه نفسه. وهو يشمل في ذاته مبدأ التكرار لأنّه هو عينه يعود ولا ينفكّ يعود دون سبب أو دفع خارجي. ولهذا فإنّ التكرار الحقيقي والأصيل هو تكرار المختلف وفي ذلك يقول دولوز: « ليس التكرار هو تكرار للـ"عينه" فهو دوماً تكرار المختلف، وموضوع الاختلاف هو التكرار نفسه»[5]، فالتكرار لا يكرّر نفسه بوصفه ذات النفس أو الهو هو بل هو عودٌ أبديٌ للمختلف.

إنّ الأنطولوجيا التي يقترحها دولوز في هذا السياق تؤكد هذه الديناميكية العميقة لتكرار الاختلاف بوصفها قوّة خلاقة ومنتجة وأصلية. وكما سنبيّن لاحقاً فإنّ هذه الأصالة تحكمها مفارقة جوهرية لأنّها هي نفسها نقدُ جذري لكلّ أصلٍ يُتصوّر بوصفه هويّةً وتطابقاً. فالاختلاف عند دولوز يسبق الهويّة على الدوام ويكشف عن إلتباسها وإبهامها. هو إختلاف يبيّن مستويات تشكّل الهويّة بوصفها إرتهانات غير أصلية أو بلغة دولوز "إشتغالات زائفة"، وقائمة على "التخمين" « لا يمكن للهوية أن تكون إلا مخمَّناً بها؛ لأنّ الفكر يعطي قبلياً شكل ما لم يعرفه بعد»[6] ولعلّ هذه الفكرة

1 EugenFink*, La Philosophie de Nietzsche*, trad. fr. H. Hildenbrand et A. Lindenberg, Minuit, Paris, 1965, p. 75.

2 أوغين فينك، مرجع سابق، ص. 74

3 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص، 235.

4 جيل دولوز: الإختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 554

5 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 554

6 نفس المرجع، ص. 12.

هي أحد ركائز فلسفة دولوز كلّها، فهي فكرة تحاول أن تُنصِّب الاختلاف بدل الهويّة لأنّ الواقع عند دولوز هو ببساطة الاختلاف نفسه. ولذلك فإنّ مفهوم العود الأبدي هو أنطولوجيا الحياة نفسها بوصفها تكراراً للاختلاف.

وهذا يشدّنا إلى السؤال الثاني المتعلّق بأهداف العود الأبدي عند دولوز وغاياته؟ وهو سؤال تقوده فرضية أنّ البعد الإيتيقي هو بعدٌ ثاوٍ في فكر دولوز من طرفه إلى طرفه، أو بلغة دولوز نفسه هو "بُعدٌ محايثٌ للفكر"، وذلك دون أن يذكره دولوز على نحوٍ مباشِر أو يُفرد له بحثاً مخصوصاً. فهذا الفكر ينقاد في جميع أبعاده إلى التفكير في حياة الإنسان ودروبها الكثيرة المتشعّبة وأشكال العمل التي تحرّكها وأشكال المعنى التي تضفيها وأنماط العلاقات التي تبنيها ونظم المعايير التي تحتكم إليها. فالعود الأبدي قوّة ونشاط وعلاقة ومعنى ومعيار بآن، يؤكّد على قوّة الحياة في وجه انتشار العدمية والسلب« إنّ درس العودة الدائمة تعني أنّه ليس هناك عودة للنافي. إنّ العودة تعني أنّ الوجود انتقاء. هي إعادة توليد الصيرورة [...] الصيرورة الفاعلة فقط»[1]. فالعدمية، عند دولوز وعند نيتشه من قبله، هي قوّة نافية للحياة فهي « لا تعني اللاَّ- وجود، بل قيمة عدم أوّلاً. والحياة تأخذ قيمة عدم بمقدار ما يجري نفيها، والحطّ من قيمتها»[2]. وبما أنّ الحياة هي اختلاف وتكرار للاختلاف فإنّ العدمية هي كلّ محاولة تجعل الاختلاف لاحقاً للهويّة وتابعاً لها وليس بوصفه فعلاً أصلياً ومؤسِّساً. فالعدمية هي التأكيد على مقولات الهويّة والثبات والواحد والشبيه والأبدي، إلخ. ولذلك نجد دولوز ينتقد بشدّة مفاهيم "التمثّل" و"الجدل" عند هيغل* وفي المثالية الألمانية عموماً؛ لأنّها مفاهيم تتأسّس على مبدأ الهويّة والثبات اللاَّزمين للروح النسقية التي تهيمن على قسم كبير من الفلسفة القارية الأوروبية. فعند دولوز يتأسّس الفعل الخلاّق الذي يؤكّد على الحياة في "التكرار" بوصفه تكرار الاختلاف نفسه.

وباعتبار هذين السؤالين الآنفين وما يفترض من مقاربات لهما وإجابات عنهما تترابط فلسفة دولوز الأنطولوجية بفلسفته الأخلاقية الترابط كلّه. ولكن هل يمكننا وفق التصورات المعتادة في تاريخ الفكر الفلسفي أن نتصوّر أنطولوجيا قائمة على الاختلاف ومبدِّدة لفكرة الهويّة تبديداً شديداً؟ وبالتالي هل ثمّة من إمكان لقيام نظرية في الوجود على أساس غياب الهويّة؟ ومن هنا يكمن أحد منابع الإبداع عند دولوز حين يقوم بخلخلة النسق المفاهيمي التقليدي للفلسفة ويزيح أهمّ أعمدتها الراسخة، ألا وهو مبدأ الهويّة نفسه، حين يصير الوجود حياةً والحياة وجوداً، فيصيران ذات الشيء لا فرق، في صيرورة واحدة يحركّها الاختلاف ويخترقها.

العود الأبدي في مواجهة العدمية

ينبغي، في البدء، أن نشير إلى طبيعة العلاقة الفكرية بين نيتشه ودولوز، فهي علاقة تبدو بحسب مؤلف دولوز الأوّل عن نيتشه **(نيتشه والفلسفة** 1962) متينة وخلاّقة ولكنّها ليست في كلّ الأحوال تأويلاً أو شرحاً أو حتّى قراءة مفتوحة لفلسفة نيتشه- وإن كانت لا تتعارض معها بل تؤكّدها بطريقة جديدة كلّ الجدّة- وليست هي كذلك استعادة تلقائية أوانتقائية لبعض المفاهيم الملائمة للحاجة والعصر، بل هي تأسيسٌ فلسفي خاص بدولوز يتخفّى تحت عباءة

1 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 242.

2 نفس المرجع، ص. 189.

*** هيغل، جورج فيلهلم فريديريش (1770- 1831): يعتبر الفيلسوف الغربي الأبرز والأكثر استغلاقاً على الفهم. كان ناقداً مروّعاً لسلفه إمانويل كانط ومؤثراً فعّالاً في تكوين ماركس، وقد غيّر فكره في مسار التاريخ في القرنين التاسع عشر والعشرين . هيغل مفكر صعب لأنّ كلّ أعماله تعكس رؤية منظومية للعالم..يتعيّن أحد أعظم إسهاماته في فهمه طبيعة الفكر البشري بوصفه فكراً مشروط تاريخياً. وتاريخ العالم ليس إلا تاريخ تقدّم الوعي بالحرية. ترك لنا هيغل إرثاً فلسفياً هائلاً ، واهتمامه الفلسفي كان اهتماما موسوعياً شمل الدين والطبيعة والفكر والمنطق وعلم الجمال وفلسفة الحق وتاريخ الفلسفة إلخ. راجع بهذا الخصوص: دليل أوكسفورد للفلسفة، المجلد الرابع، تحرير تد هوندريتش، ترجمة نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس ليبيا، 2002، ص. 998-1001.**

نيتشه. فنيتشه بالنسبة لدولوز هو صديق وحليف فكري، أو لنقل بلغة دولوز هو شخصية يتمّ إبداعها بقراءتها على نحوٍ مخصوص، هي شخصية مفهومية وفق المعنى الذي سيشتغل عليه دولوز في كتابه الشهير "**ماهي الفلسفة**"[1]، أي أنّ دوره سيتعلّق ببعض المفاهيم في علاقتها بمسألة محدَّدة « لقد حاولنا [...] أن نفكّ تحالفات خطيرة. تخيّلنا نيتشه ساحباً رهانه من لعبة ليست لعبته»[2]. ومعنى "تخّيلنا" قد لا يكون معنىً بريئاً، بل هو يأتي بمعنى الإبداع والخلق داخل حقل جديد، فمفهوم العود الأبدي للمختلف هو مفهوم خاص بدولوز وإن كان يمتحه من نيتشه. ففي حين تفكّرنيتشه مسألة العود الأبدي داخل حقل الهويّة، أي داخل تلك الإشكالية التي يسميها هيدغر "إشكالية الميتافيزيقا"، يقوم دولوز بإزاحة هذا المفهوم ووضعه داخل حقل آخر مغاير بشكل كامل هو حقل الاختلاف. ثمّة عامل آخر شديد الأهمية في تأكيد هذا المنحى هو أنّ معظم مكوّنات هذا المفهوم سيستعيدها دولوز كاملة في عمله الأساسي اللاّحق (**الاختلاف والتكرار** 1968)، ولكنّ هذه المرّة سيتحدّث دولوز باسمه الشخصي دون الإختفاء وراء عباءة نيتشه ودون الإحالة إليه مباشرة في القضايا والمشكلات التي يطرحها المؤلِّف.

ومن الناحية المنهجية قد يكون مؤلَّف **نيتشه والفلسفة** هو العرض الأوّلي لما سيتشكّل لاحقاً في **الاختلاف والتكرار** بوصفه المشكلة الفلسفية الدولوزية بامتياز ألا وهي مشكلة الاختلاف. فقد راكم دولوز في أعماله الأولى عن سبينوزا وهيوم وبرغسون* ونيتشه ترسانة تلتف كلّها حول تأكيد الحياة في وجه العدمية والاختلاف في وجه الهويّة.

إنّ أهمية نيتشه بالنسبة لدولوز تكمن في ما يجده لديه من أفكار جديدة حول صورة المفكر المحبّ للحياة والخلق والتجدّد. ففكر دولوز هو فكر يحتفي بالقوة الإيجابية ويؤسّس لوحدة الحياة والفكر حيث يتبادل الإثنان القوة ويؤكّدان على المنحى الإيجابي للحياة« إنّ أنماط الحياة توحي بطرق تفكير، وتخلق أنماط الفكر طرق حياة. تنشط الحياةُ الفكرَ ويثبّت الفكرُ الحياة بدوره. هذه الوحدة ما قبل – السقراطية لم نعد نملك حتّى فكرتها»[3]. فهذه الوحدة الإيجابية بين الفكر والحياة تؤسّس للفلسفة الإيتيقية عند دولوز، وهي إيتيقا تقوم في فكر الفرد وينبغي عليها أن تؤكّد ما يسبق هذا الفكر ويحتويه، أي الحياة. والحياة بدورها تعيّن الفكر وتحدّده « نمتلك دائماً المعتقدات والعواطف والأفكار التي نستحقّها تبعاً لطريقة وجودنا أو أسلوب حياتنا»[4]. يهدف فكر دولوز إلى بلوغ وحدة دائرية يؤدّي فيها الإيتيقي إلى الأنطولوجي والأنطولوجي إلى الإيتيقي، وفي هذا الطور من التطور الفكري سيتكفّل العود الأبدي بإنجاز هذه المهمة الدائمة.

يشير دولوز إلى أنّ هذه الوحد الإيجابية بين الفكر والحياة قد تمّ فقدانها منذ بداية الفلسفة. فكانت بمثابة وعد لم يُنجَز، أي كانت إمكاناً لم يتفعّل، ولذلك فإنّ هذه الوحدة لم تتحقّق بعدُ وبالتالي ينبغي إبداعها وخلقها. وعملية الإبداع على مستوى الفكر ترتبط عند دولوز بالتحّرر على مستوى الوجود« إنّ جوانب الوجود التي يرفضها المسيحيون وغيرهم من العدميين هي حتّى في درجة من سلّم القيم أعلى بما لا يقاس من أن تعطيها غرائز الإنحطاط[...] موافقتها

1 أنظر بخصوص الشخصية المفهومية جيل دولوز وفيليكس غاتاري: ماهي الفلسفة، ترجمة ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1997، ص. 77 وما تلاها.

2 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 249.

*** خصّص جيل دولوز لكل واحد من هؤلاء الفلاسفة كتاباً وهي على التوالي: "سبينوزا ومشكلة التعبيرية" و "التجريبية والذاتية" و "البرغسونية" وهي مترجمة جميعها إلى اللغة العربية.**

3 جيل دولوز: نيتشه، تعريب أسامة الحاج، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص. 20.

4 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 6.

وتأييدها»[1]، بما أنّ الوجود هو عينه قوّة ضدّ السلب والعدم، إنّه قوّة إيجاب مطلق« تحت سلطان النافي، يكون مجمل الحياة هو الذي يجري بخس قيمته، وتكون الحياة الإرتكاسية هي التي تنتصر بوجه خاص»[2].

الاختلاف في مواجهة الجدل

تريد فلسفة دولوز التحرّر الكامل من ربق الهويّة وظلالها. ولا شكّ أنّ دولوز بنقده الجذري لفلسفات الهويّة إنّما كان يتوجّه ضمناً لفلسفة هيغل الجدلية، فبحسب رأيه يعيق الجدل فكر الاختلاف الحقيقي عن التحقّق، بما أنّه يكتفي بتجريد الاختلاف ويعتبره تناقضاً وتضاداً، فهو فكرٌ يتفكّر الاختلاف بوصفه سلباً «إذا كان الديالكتيك يجد عنصره النظري في التعارض والتناقض، فذلك أولاً لأنّه يعكس صورة زائفة عن الاختلاف. فهو كعين البقرة يعكس الاختلاف في صورة مقلوبة. إنّ الديالكتيك الهيغلي هو تفكير حول الاختلاف، لكنّه يقلب صورته. فمحلّ إثبات الاختلاف بما هو كذلك، يحلّ نفي ما يختلف، ومحلّ إثبات الذات، نفي الآخر، ومحلّ إثبات الإثبات، نفي النفي المشهور. لكن ليس لهذا القلب من معنى لو لم تكن تنفخ فيه الحياة عملياً قوى من مصلحتها أن تفعل ذلك. إنّ الديالكتيك يعبّر عن كلّ تراكيب القوى الإرتكاسية والعدمية، وعن تاريخ علاقاتها أو تطور تلك العلاقات. إنّ التعارض الموضوع مكان الاختلاف هو مع ذلك انتصار القوى الإرتكاسية التي تجد في إرادة العدم المبدأ الذي يناسبها»[3].

إنّ "عمل السلب" الذي يقوم به الجدل الهيغلي مشتغلاً بالنفي والتعارض والتناقض سيتمّ استبداله عند دولوز "بالمتعة والبهجة وتأكيد الاختلاف" وهي ما تصرّ عليه فلسفة نيتشه « إنّ الحلم المناهض للديالكتيك والمعادي للدين الذي يجتاز كلّ فلسفة نيتشه هو منطق الإثبات المتعدد، بين الإيجابي والمتعدد، بين الإثبات والمتعدد. إنّ البطل مبتهج»[4]، أي أنّه ضربٌ من النشاط الفلسفي الإمبيريقي على طريقة هيوم*، ونحن نعلم أنّ دولوز مولع بهيوم وفلسفته الولع كلّه، فالبنسبة له ينبغي بناء الفلسفة بطريقة تجريبية على نسق هيوم« ليست التجريبية إطلاقاً ردّ فعل ضدّ المفاهيم، ولا هي مجرّد دعوة إلى التجربة المعيوشة. إنّما تسعى على العكس من ذلك إلى إبداع المفاهيم الأكثر جنوناً والذي لم نره أو نسمع به قطّ»[5] أي أنّها تجريبية على دروب الاختلاف والصيرورة. ولكنّها تجريبية ينبغي أن تسبق أي تشكّل مسبق للذات، أي هي تجريبية الاختلاف قبل الهويّة. فالإمبيريقية تعني لدولوز تأكيداً تجريبياً للاختلاف واحتفاءً بالمتعة وتأكيد إيجابية الحياة في مواجهة الألم الناجم عن السلب.ومن البيّن أنّ هذا التأكيد ليس نمطاً معرفياً قائماً على التجريد بل هو "إحساسٌ" و"تجربةٌ" و"عاطفة" « في الواقع ليس الفكر عقلاً، إنما العقل هو تأثّر الفكر. وبهذا المعنى سوف يُقال عنه أنّه غريزة، عادة، طبيعة. ليس العقل سوى تحديد عام وهادئ للإنفعالات يقوم على رؤية من بعيد أو

---

1 جيل دولوز: نيتشه، مرجع سابق، ص. 90.

2 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 220.

3 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 250

4 نفس المرجع السابق، ص. 250

*** هيوم، ديفيد (1711-1776): فيلسوف وعالم اقتصاد ومؤرخ وحقوقي اسكتلندي. أحد المفكرين التنويريين الكبار ومؤسس المذهب الإمبيريقي الحديث مع لوك وباركلي. وقد قامت فلسفته على معارضة ديكارت والفلاسفة اللاهوتتين القائلين بالأفكار الفطرية فاتحاً بذلك الدرب للمناهج التجريبية في قراءة وفهم الذهن البشري. وقد امتدّ تأثير أفكاره الجديدة إلى كانط والفلسفة التحليلية المعاصرة والفينومينولوجيا وكذلك تأثيره كبير على نظرية المعرفة والإبستمولوجيا المعاصرتين . وقد عارض التصورات الدينية عن الطبيعة البشرية وكذلك انتقد العقلانية الإنسانوية وتشديدها على فكرة مركزية الإنسان إلخ. راجع بهذا الصدد: Routledge Encyclopedia of (Philosophy, Version 1.0, London and New York: Routledge (1998) pp. 3690-3710.**

5 جيل دولوز، الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 41.

على انعكاس. العقل نوع من العاطفة»[1] وبالتالي قدرةٌ موضوعية تسبق المعرفة في لحظات تجريديها، فالتجريد هو عملية "بعدية" كما أشار كانط من قبل إلى ذلك.إنّ ما يسم الجدل جوهرياً عند هيغل هو طابعه النظري وبقاؤه في هذا المستوى« لا يمكن أن يدهشنا أن يعمل الديالكتيك بطريقة التعارض، وتنمية التعارض، أو التناقض وحلّ التناقض. إنّه يجهل العنصر الفعلي الذي تشتق منه القوى، وصفاتها وعلاقاتها، يعرف فقط من هذا العنصر الصورة المقلوبة التي تنعكس في الأغراض المنظور إليها بصورة مجرّدة»[2]، أي هو وجود تصوّري يقوم في التمثّل، ويضيف دولوز« إنّ وجود المنطق الهيغلي هو الوجود المتصوَّر فقط، والخالص والفارغ، [...] إنّ الوجود الهيغلي هو العدم لا أكثر ولا أقلّ؛ والصيرورة التي يشكّلها هذا الوجود مع العدم، أي مع نفسه، هي صيرورة عدمية تماماً»[3].

وتلقاء هذا الضرب من الفكر النظري السالب يرنو فكر دولوز أن يكون ممارسةً قبل كلّ شيء آخر، ممارسةٌ تحرّر الحياة من معيقاتها وظلالها البائسة ومن قوى السلب المتحكّمة فيها.

ويرى دولوز، إضافةً إلى ذلك، أنّ فلاسفة الهويّة والجدل لا يقدرون إنجاز أي شيء على مستوى الواقع؛ لأنهم يتحركون في أفاق السراب والوهم« إنّ كلّ الديالكتيك إذ ينظر إلى الأعراض بصورة مجرّدة ويجعل من حركة الظاهر قانون الأشياء التعاقبي المنطقي، ولا يستبقي من المبدأ غير صورة مقلوبة، يعمل ويتحرّك في عنصر الوهم. وكيف لا تكون حلوله وهمية إذا كانت كلّ مشكلاته هي بحدّ ذاتها وهمية؟»[4].

تؤكّد فلسفة دولوز في جميع مفاصلها على الرابط القوي بين التأكيد والمتعة والاختلاف. ولذلك نراه يشدّد على هذا البعد عند نيتشه « إنّ نيتشه يحلّ محلّ العنصر النظري للنفي أو المعارضة أو التناقض، عنصر الاختلاف العملي، الذي يكون موضوع إثبات واستمتاع، بهذا المعنى إنّما توجد تجريبية نيتشوية»[5]. وتأكيد الاختلاف لا يعني عند دولوز إختلاف شيء عن شيء آخر أو شخص عن شخص آخر؛ فهذا التأكيد، على خلاف الجدل، ليس تعارض هويّات، فالأمر هنا خارج كلّ تعارض أو مقارنة، إنّه "اختلاف باطن"، اختلاف محض وفي ذاته. أي أنّني قبل أن أكون من أكون إنّما أنا حركة اختلاف. وهذه الحركة الأصلية قائمةٌ في الإحساس الإمبيريقي أصلاً وليست أمراً ناجماً عن مسار تفكّري أو تأمّلي، بما أنّ الفكر نفسه، من حيث هو كذلك، تمثّلي وقائم على مبدأ الهويّة والثبات والجدل.

ويمثّل دولوز على فكر الهويّة بحالة يستمدّها من قراءته لجدلية السيد والعبد في كتاب نيتشه "**جينيالوجيا الأخلاق**"، ولكنّه يقوم بإزاحتها بطريقة شفافة مقحماً على فكرة الهويّة أحساس الاختلاف، فالسيد يؤكّد نفسه بوصفه طيّباً ومن ثمّ يعرّف العبد بوصفه سيئاً. والمهمّ هنا هو أنّه لا يتعيّن في البدء في مواجهة الآخر، أي العبد، إنّه يؤكّد نفسه أولاً "فأنا طيب" و"استمتع بنفسي على هذا النحو"، أي أنّه لا يفكّر في البداية بشكل مفهومي أو تمثّلي فهو ينطلق من إحساس واقعي بالاختلاف. ولكنّه في مرحلة ثانية فقط يحدّد العبد بوصفه "ليس أنا" وبالتالي "هو سيئ"، فالهويّة والسلب هنا هما استنباط لاحق، والسيئ هو من كان ليس طيباً. وفي الجهة المقابلة ينطلق العبد منذ البدء بالسلب أي بتعيين الأخر وتحميله مسؤلية العذاب والألم. فهو يتصوّر الألم منذ البدء بطريقة سلبية ويرى أنّ الآخرين هم السبب[6]. وقد

1 جيل دولوز: التجريبية والذاتية، بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1999، ص. 24.

2 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة مرجع سابق، ص. 202.

3 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة مرجع سابق، ص. 234

4 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 203.

5 نفس المرجع السابق، ص. 14.

6 أنظر جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 15

ذهب نيتشه أبعد من ذلك حين أعتبر أنّ أصل اللغة قائم في هذه العلاقة « إنّ حقّ الأسياد في أعطاء الأسماء إنّما يتّسع إلى حدّ أنّه قد يجوز للمرء أن يعيّن أصل اللغة ذاتها بوصفه تجلّياً لقدرة أصحاب السيادة هم يقولون: "هذا هو كذا وكذا"، وهم يختمون على كلّ شيء وعلى كلّ حدث بنبرة ما وبذلك هم يأخذونه بوجه ما في حوزتهم»[1].

ما يعني أن فلسفة دولوز تنحو في ـ بعدها الأنطولوجي ـ أن تكون فلسفة تراجيدية بالمعنى النيتشوي ذاته، فقد استعاد دولوز مفهوم التراجيديا النيتشوي ليؤكد على إيجابية الحياة، ويبيّن التشويه الذي لحق به نتيجة للتصورات الجدلية التي تربطه بالألم والنفي، فكلّ اختلاف يُتصوّر بوصفه مبعثاً على الإحساس بالألم. وعلى هذا النحو يتمّ تصوّر الصيرورة والتعدّد والصدفة بوصفها كذلك، فواقعة أنّ الحياة هي تعدّدٌ وانقسامٌ وتشتتٌ، وخاضعة لنير الزمان وصروفه، وعرضةٌ للعارض والعابر والجائز، إنّما هي أمور يتمّ تصورها بوصفها أشياء مؤلمة. والألم يُنظر إليه على الدوام بوصفه شيئاً سيئاً وما كان ينبغي أن يحدث.

ولا شك أنّ إيجابية الحياة تعني عند دولوز الذي يطوّر هذه الفكرة عن سبينوزا أن نقبل الألم الذي تحتويه فهو جزء من الحياة نفسها وبعدٌ من أبعادها، ولا ينبغي البحث بطريقة جدلية لتجاوز الأم وإلغاءه تفكُّرياً ولكن ينبغي التأكيد على وجوده واقعياً وفي هذا يقول دولوز « إنّ انعدام معنى الألم، وليس الألم بالذات، هو اللعنة التي نزلت بثقلها على البشرية حتّى أيامنا هذه»[2]. وإرادة الحياة لا يعني تحمّلها بوصفها عبئاً وإنّما أيضاً الرغبة فيها من حيث هي كذلك، « إنّ نيتشه هو الوحيد الذي لا يتأوّه بسبب إكتشاف الإرادة، ولا يحاول تجنّب أثرها أو الحدّ منه [...] إنّها فكر يثبّت الحياة والإرادة في الحياة [...] ولا الحياة تشعر بذاتها مذنبة لكونها موجودة»[3]. ومن هنا السؤال: من أين يأتي الألم في الحياة؟ ما يكشف عن أنّ إيجابية الحياة عند دولوز تعني أن نقبل الألم الذي تحتويه بوصفه جزءاً من الحياة نفسها وبعداً من أبعادها، ولا ينبغي البحث بطريقة جدلية لتجاوزه وإلغاءه تفكُّرياً ولكن ينبغي التأكيد على وجوده واقعياً. وإرادة الحياة لا تعني تحمّلها بوصفها عبئاً وإنّما أيضاً الرغبة فيها من حيث هي كذلك، وهو ما يقتضي التساؤل عن مصدر الألم في الحياة؟ وهل ثمة من معنى للوجود مع ذلك؟ يقول دولوزفي هذا: « ليس الألم حجّة ضدّ الحياة، بل هو على العكس محرّض الحياة، "طعم للحياة"، حجّة لصالحها. إنّ رؤية الألم أو حتّى إنزال الألم هو بنية للحياة كحياة فاعلة، تجلٍّ فاعل للحياة»[4].

لقد كانت الإجابة التاريخية والفكرية المعتادة عن هذا الأمر كالتالي: إنّ المصدر العميق والبعيد للألم هو الصيرورة والكثرة والتحوّل والصدفة والفوضى، أي كلّ تلك الوجوه المكوّنة للاختلاف. فالصيرورة تأتي على من نحبّ وعلينا أيضاً، والكثرة تجعلنا نشعر بالعزلة المؤلمة، والصدفة هي مبعث لكل طارئ مضني ومكدّر، إلخ. وهذا ما يلخصّه دولوز على نحو طريف: « هذا الخوف من السعادة ومن الجمال، هذه الرغبة في الهرب من كلّ ما هو ظاهر، وتبدّل، وصيرورة، وموت، وجهد، وحتّى رغبة؛ كلّ هذا يعني، إذا تجرّأنا على أن نفهمه، إرادة إعدام، عداء للحياة، رفضاً للتسليم بشروط الحياة الأساسية»[5]. وهذا ما يحفّز فكر الهويّة ليتحدّث باسم الكينونة وينفي الاختلاف فيها ويؤسّس لمملكة الواحد والثابت والأبدي، وهو ما يخلص إليه أدريان بارAdrian Parr أحد الشارحين الكبار لفلسفة

1 فريديريتش نيتشه: في جنيالوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص. 46.

2 جيل دولوز: نيتشه، مرجع سابق، ص. 93.

3 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 49.

4 نفس المرجع، ص. 167.

5 نفس المرجع، ص. 94.

دولوز « تعمل الهوية بعمق لتحجب الاختلافات المحضة. وهي تعمل على هذا النحو بفعل هيمنة مبدأ التمثّل في تاريخ الفلسفة. فالموضوعات والذوات والملكات والأحاسيس والمثل والأفكار هي موضوعات للتمثّل»[1] والتمثّل هو دوماً صور الفكر التي لا تستطيع تمثّل الموضوعات إلا بوصفها هويّات وبذلك تحجب الاختلافات.

لقد كان السؤال الأساسي للفلسفة عند نيتشه، كما يرى دولوز، هو « هل ثمّة من معنى للوجود؟»[2]، وهو سؤال لا يطرحه دولوز نفسه في أيّ من أعماله بطريقة صريحة، أي بوصفه سؤالا مركزياً. فالبنسبة له فإنّ الأسئلة من قبيل "عبث الحياة" و"عدمية القيم" والحياة بعد الموت والسؤال الأساسي، وما شابه ذلك هي مسائل زائفة في فلسفة نيتشه فما هو مهمّ لديه هو في الحقيقة، كما يرى دولوز، ذلك الإلحاد الجذل وموت الإله المحرِّر للبشر لأنّ البشر لن يكونوا أحراراً ويقررون مصيرهم في وجود إله حيّ، بل التأكيد على الدلالة الإيجابية للحياة في تجدّدها وصيرورتها الدائمة. وفي هذا المنحى النهائي الذي يحدّده دولوز إنّما تتأسّس فلسفته الإيتيقية في العود الأبدي للمختلف وتكرار قوّة الحياة وإيجابيتها في مواجهة السلب والعدم. وقد تمّ عرض العود الأبدي بوصفه فكراً يتطابق مع الواقع وطبيعته الحيّة بوصفه كثرةً وتعدّداً وصدفةً، ولكنّ الواقع نفسه لا يتعيّن بهذه الصفات وحدها، ويبقى مفهوم الصيرورة في هذا المستوى مفهوماً يعوزه الكثير من التعيّن وبالتالي يحتاج إلى مزيد من التمعين والتعيين. وهذه الفلسفة الإيتيقية التي يؤثّثها دولوز في هذه المرحلة من البحث إنّما تحتاج إلى تأسيس أنطولوجي متين، وهو ما يعيدنا إلى سؤال طرحناه في البداية وهو: هل يمكن إقامة أنطولوجيا على مبدأ الاختلاف والتفريط في مبدأ الهويّة؟ هذا ما سيحاول كتاب دولوز الأساسي "**الاختلاف والتكرار**" النظر فيه.

في دلالة التكرار بين كيركيغارد ودولوز.

إنّ البحث عن معنى التكرار عند دولوز هو البحث عمّا يمكن أن يعود بطريقة مطابقة بشكل مطلق، أي ما هو مطلقاً هوهو أو المتطابق، أي البحث عن ماهية التكرار بوصفها ماهيةً متطابقة مع نفسها. وقد يبدو هذا للوهلة الأولى ضرباً من المفارقة داخل هذا النسق الدولوزي وبالنظر لما قيل سابقاً بأنّ دولوز يبحث عن "المتطابق الحقيقي" وعن "التكرار الحقيقي" وليس عن أيّ تكرار كان، ولكن سرعان ما تتقشع سمة المفارقة هذه حين ندرك أنّ التكرار المتطابق هو ليس شيئاً آخر وليس له أن يكون سوى تكرار الاختلاف، وهذا هو ما يسمّيه دولوز "التكرار الحقيقي" لأنّ المتطابق الحقيقي مع ذاته هو الاختلاف وحده وليس أي شيء آخر«حلّ الاختلاف والتكرار محلّ الهو هو المتطابق والسلبي، والهوية والتناقض؛ لأنّ الاختلاف لا يتضمّن السلبي، ويفلت من الذهاب حتى التناقض إلاّ بقدر ما يستمرّ إخضاعه لـ "هو هو"»[3]، ويعلّل ذلك بقوله: « أليست مفارقة التكرار في أنّه لا يمكننا الكلام عن التكرار إلا بواسة الاختلاف أو التغيير الذي يدخله في الروح الذي يتأمّله؟ بواسطة اختلاف ينتزعه الروح من التكرار»[4]. فالبحث عن المتطابق يؤدّي إلى الاختلاف والبحث عن الاختلاف يقود إلى المتطابق، ومن هذين المفهومين يتكوّن مفهوم العود الأبدي عند دولوز، أي عودة المختلف على نحو يتكرر أبداً.

---

1 Adrian Parr: *The Deleuze Dictionary*, Edinburg University press, Edinburg 2007. p. 127.

2 جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص. 27.

3 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 38.

4 نفس المرجع ، ص. 166.

إنّ ما يتكرّر حقاً بالنسبة لدولوز هو المختلف، فهو الوحيد الذي يعود« جعل التكرار عينه شيئاً جديداً وربطه بانتقاء وباختبار انتقائي، وطرحه باعتباره موضوعاً أسمى للإرادة والحريّة»[1]، وليس أيّاً كان ولا على أيّ نحوٍ كان « هناك قوّة مشتركة بين كيركيغارد ونيتشه. ومن الضروري أن ينضمّ إليهما بيغي لتشكيل ثلاثية القديس البروتستانتي والمسيح الدجّال والكاثوليكي. وقد جعل كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة وعلى طريقته من التكرار، ليس فقط قدرةً خاصةً باللغة والفكر ومعاناةً وحالةً مرضيةً عليا، ولكن المقولة الأساسية لفلسفة المستقبل»[2]. فما يتكرّر يأتي من جهتين، الكينونة أنطولوجياً والفرد إيتيقياً. وفكرة التكرار عند دولوز تجد لها مصدراً في فلسفة سورين كيركيغارد، ولكنّه مصدر سيتمّ تحويله في اتّجاه أفق نيتشوي وسيحذف منه كلّ العناصر الأخرى.

يرتبط التكرار من حيث هو تكرار عند كيركيغارد* بمسألة الحركة. فالتكرار هو "الحركة الحقيقية"، أي هو جوهر الحركة نفسها، وهو تصوّر أساسي عند كيركيغارد وموّجه كما هو معلوم لدحض فكرة "التوسّط" عند هيغل. ولكنّ الحركة هنا لها دلالة روحية، فالحركة الفعلية هي حركة النفس وليست حركة المفاهيم القائمة على تصوّر مجرّد للحركة، إنّها حركة مباشرة وليست حركة بتوسّط أو بتجريد. إنّها حركة الوجود على المستوى الروحي الديني الذي يقيم تجدّد الحياة ويعيد خلقها على الدوام. فالتكرار عند كيركيغارد هو حركة الفرد على درب الحياة، وهو تكرارٌ مبدعٌ لما كان ومضى ولكن على نحو آخر جديد، أي أنّه تكرار الهوهو بطريقة مختلفة. وبهذا كان كيركيغارد يصبو إلى حلّ مشكلة الهويّة والاختلاف بطريقة تتجاوز التصوّر الهيغلي.

وكما هو معروف فإنّ الهويّة عند هيغل هي هويّة الهويّة والاختلاف معاً، فهي تسبق الاختلاف وتحتويه، بينما تبقى العلاقة بين الهويّة والاختلاف عند كيركيغارد "متوترة" وخارجية، والتكرار هو ما يسمح بأن يكون الهوهو هو الجديد والمتجدّد، وبالتالي إمكان أن لا يبقى هوهو، أي أنّه هوهو يتحوّل باستمرار إلى آخر، وهذا هو معنى الاختلاف القائم في صلب الهوية أو حركة التكرار باتجاه المختلف والجديد على الدوام. فالجديد عند كيركيغارد هو نفسه المختلف؛ لأنّ كلّ جديد هو جديد من حيث هو اختلاف. فالتكرار يسمح عند كيركيغارد بتصالح الفرد مع العالم ومع الحياة ومع نفسه، ونهاية لكلّ الآلام والتمزقات الداخلية وعلاجاً للقلق والجزع، فالتكرار هو إعادة خلق دائمة، تجعل السعادة في متناول الإنسان. هذه السمات الكيركيغاردية سيستعيدها دولوز ويحوّلها لصالح فلسفته الخاصة.

إنّ مسألة التكرار بمعناه الحقيقي عند كيركيغارد ودولوز هي محاولة أصيلة للهروب من الهوهو حين لا تكون الحياة سوى تكرارات ممّلة، وبالتالي مبعثاً على التعاسة. ففي التكرار تغدو الحياة رخوةً وفاقدةً للكثافة، والفعل الرخو يفقد كثافته التي كان عليها حين حدث أوّل مرّة. يقوم دولوز باستعادة هذا التمييز الذي يقوم به كيركيغارد بين تكرار أصيل وتكرار زائف ويزيح مركزه باتجاه الفكرة الدلوزية الأساسية وهي أنّ التكرار الحقيقي هو تكرار الاختلاف. والتكرار عند كيركيغارد يرتبط بالكائن الفرد الحرّ تلقاء الله، الكائن العاشق المولّه الذي لا يستقيم عشقه إلا في التكرار، يقول

1 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 52.

2 جيل دولوز: الإختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 52- 53.

*** كيركيغارد، سورين آبي (1813-1855): فيلسوف دانماركي. تأثّر كيكيغارد في حياته وفكره بالتربية الدينية التي تلقّاها من أبيه. وكانت تربيةً شديدة التزمت. وقد نشر أولى أعماله "إمّا أو إمّا" تحت اسم مستعار فيكتور إريميتا. اشار في كتابه الرئيسي "فتات فلسفي" سنة (1844) إلى أنّ الوجود الإنساني هو وجود فردي ولا يحال إلى أسرة أو مجتمع وعليه أن يتحمّل الفرد عبء هذا الأمر ويخضع لمصيره. وحاول في كتابه :التكرار" (1843) القبض على حقيقة الزمان وأصالته في محاولة عميقة لإخراجه من لانهائيته وعبثيته ومأساته. تُعدّ كتاباته لبنة أولى للفلسفة الوجودية ونقداً شديداً للمؤسّسة الكنسية وللفلسفة النسقية الهيغلية على حدٍّ سواء. راجع بهذا الخصوص: معجم الفلاسفة ، إعداد جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2006، ص. 560-563.**

كيركيغارد في كتابه "**التكرار**" الذي تم نشره سنة 1843 « التكرار هو الحبّ الحقيقي، الحب الوحيد السعيد والصافي؛ لأنّه لا يضطرب بالأمل أو بالقلق الرائع، ولا بشقاء الإستعادة والتجميع، بدل ذلك يملك في ذاته طمأنينة اللحظة»[1]، ويضيف في نفس الصفحة وبأسلوبه الشفّاف « من أختار التكرار يحيا. فهو لا يطارد الفراشات مثل الأطفال أو مثل من وقف على أصابع قدميه ليقتنص رؤية عجائب الدنيا»[2] الحياة الحقيقية عند كيركيغارد تقيم في التكرار العاشق، وفي تملّك اللحظة الراهنة في طمأنينة وشغف. وهذا الضرب من التكرار،كما يقرأه دولوز، هو تكرار الفردي وليس تكرار العام أو الخاص، دولوز يتحدّث دوماً عن الفردي ولا مكان للعمومي في نسقه الفلسفي. فنحن نجد عند كيركيغارد كما عند نيتشه هذا النفور من كلّ ما هو عام « إنّ ما يفصل بينهم هو ضخم وظاهر ومعروف. إنّما لا شيء يمحو هذا اللقاء الهائل حول فكر التكرار: يعارضون التكرار بكلّ أشكال العمومية. ولا يفهمون كلمة "تكرار" بطريقة مجازية، إنّما يمتلكون خلافاً لذلك، طريقة معيّنة بفهمها حرفياً وتمريرها في الأسلوب»[3].

إنّ فكرة التكرار عند كيركيغارد ودولوز تتجاوز مسألتي الخير والشر، أي أنّها خارج الأمر الأخلاقي فهي«معارضة التكرار بالقانون الأخلاقي، وجعل تعليق الأخلاقيات فكرَ ما وراء الخير والشرّ. ويظهر التكرار كعقل– لوغوس– المتوحّد والفريد، ولوغوس "الفكر الخصوصي"»[4]. هنا يواجه كيركيغارد الأمر الأخلاقي بواسطة صور النبيين إبراهيم وأيوب الذيْن يمثّلان الإعتراض الضمني والقبول الصريح التامين في آن« أيوب هو الإعتراض اللامتناهي وابراهيم الإستسلام اللامتناهي، ولكن كلا الإثنين هما الشيء نفسه والوحيد»[5]. ويرى في تجربتهما أمتحاناً روحياً أو اختباراً دينياً يقوم في الألم بوصفه امتحاناً وجودياً للإنسان من قبل الله. أمّا دولوز فيرى أنّ مواجهة الأمر الأخلاقي قائمة في التكرار نفسه الذي لا يكرّر أنماط السلوك الثابتة عينها وإنّما يحرّرمنابع الحياة من عقالها وعطالتها. وفي هذا المنحى يربط دولوز فكر كيركيغارد بنيتشه ليبيّن أنّ التكرار قادر على قلب الأمر الأخلاقي عند كانط قلباً نهائياً « نجد هنا "شكلانية" تقلب كانط في حقله الخاص به، اختبار يذهب بعيداً؛ لأنّه بدلاً من أن ينسب التكرار إلى قانون أخلاقي مفترض، يبدو أنّه يجعل من التكرار عينه الشكل الوحيد لقانون ما وراء الأخلاق»[6]. إنّ الأمر الأخلاقي عند كانط هو أمرٌ متطابقٌ مع ذاته ويؤسّس لما سيتكرّر عنه بوصفه مطابقاً له، فالعمل المتجدّد سيخضع، برغم جدّته وبفعل التكرار، إلى المطابقة والهوية، بينما التكرار الأصلي بالمعنى الدولوزي يقيم في الاختلاف أولاً، ولا تأتي الهويّة إلا فيما بعد وبصفة ثانوية. وبهذا يخترق الاختلاف الحياة ويجدّدها ويحّررها من الهوهو والتكرار السلبي. وبهذا يكون التكرار قوّة انتهاك وعدوان وتحطيم لما هو سلبي ومتماهٍ مع نفسه.

وكما عند كيركيغارد فأنّ التكرار عند دولوز يرتبط بمقولة المستقبل، فالبنسبة لكيركيغارد يتعارض التكرار مع العادة والذاكرة« هذه الحركات النفسية هي من غير طائل، وتمحو نفسها عند نيتشه وكيركيغارد أمام التكرار المطروح، بوصفه الإدانة المزدوجة للعادة والذاكرة»[7]؛ لأنّ التكرار في هذين النمطين إنّما هو تكرار سلبي يعيد ما هو متطابق،

---

1 Søren Kierkegaard, *La Répétition*, Paris, Rivages, « Rivages poche / Petite Bibliothèque », 2003, p. 43

2 نفس المرجع السابق، ص. 44.

3 جيل دولوز: الإختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 53.

4 نفس المرجع ، ص.55.

5 نفس المرجع، ن. ص.

6 جيل دولوز: الإختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 56.

7 نفس المرجع، ص. 56.

بينما يتوجّه التكرار الحقيقي شطر المتعة التي لم تأت بعد، أي أنّه توّجهٌ فرِحٌ نحو المستقبل « التكرار هو من غير شكّ ما سبق وكبّل، إلا إن متنا من التكرار، فهو أيضاً الذي ينقذنا والذي يشفينا، والذي يشفينا في البداية من التكرار الآخر. نجد إذن في التكرار في الوقت نفسه كلّ اللّعب الصوفي للخسارة والخلاص، وكلّ اللّعب المسرحي للموت والحياة»[1]. يعارض كيركيغارد، بحسب دولوز، فكرة التذكّر الأفلاطونية مركّزاً توجّهه نحو ما لم يأت بعد« التكرار هو فكر المستقبل: يعارض بين المقولة القديمة للتذكر الأفلاطوني والفكرة الحديثة لملكة العادة»[2]، وينتقد الذاكرة والعادة التي لا تعيد غير الهوهو وما سبق أن كان على هذا النحو وهو التكرار السلبي عينه، « وفي التكرار وبالتكرار يصبح النسيان قدرةً إيجابية، ويصبح اللاَّوعي لاوعياً أعلى إيجابياً (مثلاً يشكّل النسيان كقوّة جزءاً متكاملاً مع التجربة المعيوشة للعود الأبدي) ويُختصر الكلّ في القدرة. وعندما يتكلّم كيركيغارد عن التكرار كما عن القدرة الثانية للوعي، فلا تعني الثانية مرّةً ثانية، إنّما اللاَّتناهي الذي يُقال مرّةً وحيدة، والأبدية التي تُقال عن لحظة ما، واللاَّوعي الذي يقال عن الوعي»[3]. إذن، يتبدّى التكرار المبدع في تجاوز الذاكرة والعادة، فهو لا يكرّر ذكرى أوأمراً سبق وأن حدث، إنّه يشترط نسياناً ولاوعياً، لكي يتبدّى ما هو جديد ويظهر.

وبهذا يغدو التكرار عند كيركيغارد هو التعبير الأعلى عن الأبدي في الزمان، فبقدر ما تكون الحياة متجدّدةً بقدر ما تكون تعبيراً عن الأبدي في صورة التغيّر والصيرورة، وهو غير ذلك الأبدي المتكرّر هو نفسه بشكل مملٍّ وقاتم وحزينٍ، وإنّما التكرار الأبدي في المستقبل والتجدّد، إنّه هو نفسه الله في صورته الحيّة. ولكنّ هذا الأبديُّ المتكرّر بشكل خلاّق سيرى فيه دولوز صورة أخرى للهوية ولذلك سيستبدل عبارة الأبدي المليئة بالإيحاءات الدينية بعبارة أخرى هي عبارة "اللاَّزماني"، واللاَّزماني ليس شيئاً خارج عن الزمان نفسه عند دولوز وإنما هو الممتدّ في الزمان ولا يقاس به، أي أنّه صنف خارج الزمان الطبيعي، الكوسمولوجي. إنّ التكرار عند كيركيغارد هو تكرار يرتبط بقوّة مفارقة، قوّة عليا، وهو أمر سيعارضه دولوز، فالتكرار لديه يبقى قوّة "محايثة"، كما هي فلسفة دولوز كلّها، فنحن نعلم أنّ دولوز قد قاوم بشدّة جميع أشكال التعالي وفلسفات الترنسندنتالية من كانط إلى هوسرل. فلا يرتبط التكرار عنده بأيّة قوّة أو مرجع ذي طبيعة متعالية.

ولا شك أنّ هذا الفرق بينهما إنّما يرتبط بتصوّر كليهما لمسألة الهوية والاختلاف، فالعلاقة بين الهوية والاختلاف عند كيركيغارد تتراوح بفعل "التوّتر الجدلي" بين قطبين متعارضين يمكن الإنتقال من أحدهما إلى الآخر دون توسّط ولكن يبقى كلاهما محافظاً على هويته إزاء الآخر، بينما ينشئ الاختلاف عند دولوز الهويّة ويعتبرها ما يظهر على سطح المحايثة، أي بوصفها شبيهاً للمختلف نفسه. وإذا ما بقينا في مستوى المحايثة فإنّنا سنبقى بحسب كيركيغارد في مستوى سطحي هو مستوى توضّع الهويّة، باعتبار أنّ "لاشي جديد حقّاً تحت الشمس" بحسب الكتاب المقدّس. ولخلق الجديد لبدّ أن نقوم "بقفزة" في المجهول، في ما هو خارق للعادة، أي القفز إلى اللاَّمعقول، وهو أمر يتطّلب موقفاً وجودياً ذاتياً ينبني وفق علاقة خاصة بين الإنسان والله، أو ما يسميه كيركيغارد نفسه "ميثاقاً". أمّا عند دولوز فالاختلاف يُظهر الهويّة على مسطّح المحايثة بمعنى أنّ الاختلاف نفسه محايث للعالم، ولا يوجد خارج العالم بل هو ضمن العالم وفي كلّ مكان فيه، وهذا ما يذهب إليه أرنو بوانيش Arnaud Bouaniche في كتابه عن دولوز: « كرّر دولوز في قراءته لكلّ فيلسوف، رفضه للأشكال التقليدية الموجودة مسبقاً للذات والموضوع، للوعي والعالم وسعى

1 نفس المرجع، ص. 53-54.

2 نفس المرجع، ص. 56.

3 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 56-57.

إلى إقصاء المجاوزة لصالح تقسيم مسطّح لتجربة محضة وبل ذات. انطلاقاً منه يحضر الوجود تحت محيطات جديدة، وبواسطة اختلاف كثرة لامتجانس...إلخ، وهذا ما يبلغه الفيلسوف في الاختلاف والتكرار»[1].

فالإله الدولوزي، إذا جاز لنا أن نمنحه "إلهاً" ما، هو إله محايث للعالم مثل إله سبينوزا أو دينيسيوس نيتشه، والعلاقة معه لا تنجم عن فعلٍ إيماني، بل عن فعل "نشوة"، أو كما يقول نيتشه عن "رقص" أبدي: « يقترح علينا كيركيغارد مسرحاً للإيمان، فيعارض الحركة المنطقية بالحركة الروحية، حركة الإيمان»[2]. كذلك يبدو التكرار عند كيركيغارد بوصفه حركة باطنية، خاصّة بالفرد حين يتألّم فتصبح تجربته تجربة باطنية، وفي هذه التجربة يتجاوز الفرد الحقلين الجمالي والإيتيقي، ليبلغ الحقل الديني، وفي هذه العملية الباطنية يصير الفرد ذاتاً أي يصير ما هو عليه محققاً بُعدَه الأبدي فيه. يعارض دولوز باطنية الفرد هذه ويرى فيها مظهراً آخر من التعاسة والألم والعدمية. فالباطنية أو "الجوانية"هي صورة أخرى للهوية، طالما أنّها ترى أنّ الفرد يجد هويته المفقودة في الداخل ويلقي بالاختلاف في الخارج« عندما نكتشف الداخل الحرفي للتكرار، فإننا نمتلك الوسيلة ليس فقط لفهم تكرار البرانية كغطاء إنّما أيضاً لاستعادة نظام العمومية [...] لأنّه يجري اسقاط التكرار الداخلي من خلال العوامل التي تتعارض مع التكرار [...] يتأثّر دوماً داخلُ التكرار بنظام اختلاف ما»[3]، بينما الأمر يقع على العكس من ذلك عند دولوز فالاختلاف باطني والهويّة خارجية ولا تتلألأ إلاّ على السطح. فالتكرار كما يبدو لكيركيغارد هو قوّة تجعل الفرد يصير هو نفسه بفعل التكرار، بينما يحدث التكرار عند دولوز إكتشاف الاختلاف شيئاً فشيئاً داخل الذات بحيث تفقد هذه الذات نفسها في الاختلاف قبل أن تفكّر الذات في الاختلاف بوصفه هويتها الحقيقية؛ لأنّ الاختلاف يسبق التفكير دوماً وبالتالي يسبق إمكانية إكتشافه على مستوى الفكر من حيث هو اختلاف« يبدو أنّ الاختلاف في ذاته يستبعد كلّ صلة بالمختلف تجعله مفكَّراً. ويبدو انّ الاختلاف لا يصير لا مفكَّراً إلاّ إذا كان مكبوحاً»[4]. وهذا على ما نرى هو ضربٌ وهدمٌ منهجي على كافة المستويات لفكرة الذاتية الحاوية دوماً لفكرة الهوية، ودولوز، مثل فوكو ودريدا وهابرماس، تقوم فلسفته في أحد أبعادها الكبرى على تقويض فكرة الذاتية.

ومن ذلك يكتشف كيركيغارد أنّ مسألة التكرار بوصفها امتحان روحي أو اختبار ديني يقوم في الألم الذي يرى فيه امتحاناً وجودياً للإنسان من قبل الله وهو اختبار ينتهي بالإيمان الحقيقي الذي لا يأتي بالتواتر والإرث والبيئة والثقافة المهيمنة، وسينال بإيمانه هذا محبة الله وثوابه. والتكرار اختبار عند دولوز أيضاً ولكنه اختبار لتكرار الاختلاف، ففي كلّ تكرار تتبدّد قوى السلب والعدمية، وكذلك الهويّة والإتحاد بين الإنسان والله سيتمّ التفريط فيهما تفريطاً نهائياً، ولذلك يمتلك الاختلاف قوّة إشفاء وحياة وتألّق وتجدّد. وبكلمة فإنّ هذه المقارنة بين كيركيغارد ودولوز حول مسألة التكرار إنّما يقيمها دولوز نفسه داخل نصه ليبيّن مستويات مختلفة للعبارة وعمليات متعدّدة لإنشاء الحقيقة بحسب السياق التداولي لكلّ حقبة من حقب تاريخ الهوهو، أو تاريخ مشكلة الهوية. فالتكرار عند كيركيغارد هو تكرارٌ متعالٍ بينما هو عند دولوز تكرارٌ محايثٌ ومتخارجٌ عن الذاتية الفردية للإنسان وهو تكرار خاص بالكائن عموماً.فما كان يهتمّ

1 Bouaniche, *Gilles Deleuze, une introduction*, Pqris Pocket, 2007, p. 52 Arnaud

مذكور في جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 12.

2 جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، مرجع سابق، ص. 62.

3 نفس المرجع، ص. 87.

4 نفس المرجع، ص. 485.

به دولوز في العمق ليس هو التكرار نفسه ولكن فعل التكرار، أي التكرار بوصفه حركة أو صيرورة الحركة، تعيد المختلف لتتصّبه على مملكة الوجود قبل مملكة الفكر.

الخاتمة:

سعت هذه المقالة إلى تبيّن أنّ أحد الحدوس الأساسية لفلسفة جيل دولوز وهو أنّ الحياة بوصفها تكرار أبدياً للاختلاف قد قادته إلى تحقيق غاية أخلاقية تمثّلت في التأكيد على الحياة في وجه العدمية والسلب. وكان لنا أن بيّنا أنّ الواقع في أبعاده المختلفة، حسب دولوز، إنّما هو واقع لا يقيم في هويّة بعينها بل هو واقع يطأه الاختلاف على الدوام ولا يسعه أن يُتمثّل في هوية إلاّ على مستوىً ثانٍ، هو مستوى الوهم والسراب الذي يقيمه التمثّل الذي هيمن على نظام المعرفة الفلسفية لحقبة طويلة، وهو مستوى لا يسعه أن يدرك حركة الوجود الأصلية. وفي هذا الإطار تبيّن لنا كيف استعاد دولوز مفهوم العود الأبدي لذات النفس عند نيتشه والتكرار عن كيركيغارد بعد أن أزاح عنهما أساسهما الميتافيزيقي المتمثّل في مبدأ الهوية أو ذات النفس وأقحم عليهما أبعاداً جديدة لم تكن فيهما من قبل مثل الصيرورة والاختلاف. وهي استعادة خلاقة أبدعت منعرجها الخاص بها في حقل التفكير الفلسفي المعاصر الذي بات فكر الاختلاف أحد عناوينه الكبرى.

المراجع العربية:

1) جيل دولوز وفيليكس غاتاري: ماهي الفلسفة، ترجمة ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1997، ص. 77 وما تلاها.

2) جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ترجمة وفاء شعبان ومراجعة جورج زيناتي، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

3) جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.

4) جيل دولوز: نيتشه، تعريب أسامة الحاج، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998.

5) جيل دولوز: التجريبية والذاتية، بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1999.

6) فريديريتش نيتشه: في جنيالوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.

7) فريديريك نيتشه: هكذا تحدّث زرادشت، ترجمة فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938.

8) فريدريتش نيتشه: العلم المرح، ترجمة وتعليق حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، تونس، 1993.

9) مارتن هيدغر: الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم فتحي المسكيني، مراجعة اسماعيل مصدق، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ليبيا، 2012.

10) دليل أكسفورد للفلسفة، تحرير ك تد هوندريتش، ترجمة نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس، ليبيا، 2002.

11) معجم الفلاسفة: إعداد جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2006.

المراجع الأجنبية:

1) Adrian Parr: *The Deleuze Dictionary*, Edinburg University press, Edinburg 2007. p. 127.

2) Encyclopedia of Philosophy, Second Edition, Donald M. Borchert, Editor in Chief, Volume 3&9 Farmington Hills, Mi, USA, 2006.

3) EugenFink, *La Philosophie de Nietzsche*, trad. fr. H. Hildenbrand et A. Lindenberg, Minuit, Paris, 1965

4) Heidegger, Martin : *Nietzsche* , 2 t, tr. fr. de P. Klossowski, Paris, Gallimard, 1971

5) Routledge Encyclopedia of Philosophy, Version 1.0, London and New York, Routledge 1998.

6) Søren Kierkegaard, *La Répétition*, Paris, Rivages, « Rivages poche / Petite Bibliothèque », 2003.